ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مسيلة والماسيل
مقاربة موجزة في أصول مدينة مسيلة

أ. د. العربي عقون
أستاذ التاريخ القديم والآثار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة قسنطينة (٢) – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

إنّ الطوبونيميا هي أحد روافد المعرفة التاريخية، والحال أنّ المادّة التاريخانية المتعلّقة بتاريخنا القديم نادرة في المصادر الأدبية ما عدا بعض الإشارات هنا وهناك، في هذه الظروف لا يبقى سوى وسيلة واحدة: الحفريات اللسانية، أداة لمحاولة رأب الصدع الذي نتج عن ضياع الوثائق التاريخية عبر العصور. تحمل الطوبونيميا إذن دلالات عميقة، تتجاوز مجرّد التسمية إلى هوية المكان. في هذا السياق نحاول من خلال هذه المقاربة الموجزة دراسة الأصول التاريخية لمدينة مسيلة زابي في الفترة الرومانية، محمّدية خلال العهد الإسلامي. لقد أصبح موضوع الطوبونيميا يثير الكثير من التساؤلات حتى في الأوساط الأكاديمية وقد يبدو الأمر هيّنا عند البعض، ولكن الموضوع على درجة من الأهمية، لأن اسم المكان يحمل هوية المكان، فضلاً عن أنه عنوان لتاريخ طويل، ولذلك أردنا من خلال هذه المقاربة الموجزة تقديم محاولة لربط مدينة مسيلة بتاريخها من خلال اسمها العريق بقدر عراقتها، فيثير التقارب إلى حدّ التطابق الفوني بين اسم مدينة مسيلة قاعدة إقليم الحضنة، والماسيل (Massyles) وهم ذلك الاتحاد القبلي الذي انبثقت منه أعرق عائلة ملكية في تاريخ أفريقيا الشمالية القديم فضولاً معرفيًا يدفع إلى البحث والتقصّي في المصادر القديمة وحتّى التراث الشفوي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٥ فبراير ٢٠١٧
تاريخ قبول النشر: ١٧ يونيو ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:
الطوبونيميا، مسيلة، الماسيل، تاريخ أفريقيا الشمالية، تاريخ أفريقيا القديم

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0054793

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
العربي عقون. "مسيلة والماسيل: مقاربة موجزة في أصول مدينة مسيلة".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الثاني والأربعون: ديسمبر ٢٠١٨. ص ٢٦ – ٣٠.

مُقَدِّمَةٌ

يثير التقارب إلى حدّ التطابق الفوني بين اسم مدينتنا: مسيلة قاعدة إقليم الحضنة، والماسيل (Massyles) وهم ذلك الاتحاد القبلي الذي انبثقت منه أعرق عائلة ملكية في تاريخ أفريقيا الشمالية القديم فضولاً معرفيًا يدفع إلى البحث والتقصّي في المصادر القديمة وحتّى التراث الشفوي، وها هي ذي الإنياذة[١] تخلّد هؤلاء الماسيل في معرض قصّة ذلك الطروادي الضالّ (إينيوسEnée) الذي كان يسير بجوار ساحل مدينة كومة (Cumes)[٢] حتّى وصل إلى كهف عرّافة ليجد نفسه في حضرة كاهنة أبولون (Apollon)، فتوجّه بالدعاء إلى ذلك الإله ضارعا إليه شاكرًا له حمايته إياه، وهو يجوب البحار والبراري: "... لقد مخرت بحارا عديدة في ظلّ رعايتك! ودخلت أراضي شعب الماسيل البعيدة! والبلاد التي يحدّها السيرت!".[٣]

لقد كان تراث شعوب البحر المتوسّط محلّ عناية العديد من الباحثين الذين أنجزوا أعمالاً خالدة في هذا المجال، وهي أعمال تشدّ القارئ وتثير فيه الخيال الملحمي الذي لا يخلو من الحقيقة، عن الجغرافيا المتوسّطية : الموانئ والجزر والأقوام التي عاشت على ضفاف المتوسّط، مهد الحضارات القديمة،

ومن تلك الأقوام: شعب الماسيل الذي كانت له مملكة في نوميديا ما بين قرطاج وموريتانيا، ومن أبرز ملوك هؤلاء الماسيل: ماسينيسا ***(Masinissa)*** خطيب الأميرة القرطاجية صوفونيسبة[٤] التي هزّت مأساتها أحاسيس العديد من الشعراء لأنّ الشعر عند القدامى ليس لتحريك شعور السامع والقارئ فحسب ولكن كان دوره أن يرسّخ– على الخصوص– الثقافة والمعرفة في أوساط الشعب، ممّا يوحي بأنّ هؤلاء الماسيل الذين كانوا يسكنون المنطقة الشرقية من الجزائر الحالية، كانت لهم عاصمة اسمها دون ريب "ماسيلا ***Massyla***" ومع أنّ كتب التاريخ العربية تقول أنّها تأسّست سنة ٣١٥ هـ[٩٢٧-٩٢٨م] من طرف أبي القاسم محمّد بن عبيد الله[٥] إلاّ أنّ الموضوع تبيّن أنّه أعمق من ذلك بكثير، والحال أنّ علاقة الأعلام الجغرافية والقبلية القديمة بالأسماء الحديثة ليست محض صدفة والمقاربة بينها على جانب كبير من الأهمّية، وهذا للاستفادة من معطيات الطوبونيميا.[٦]

في الواقع لا يزال سكّان البوادي المجاورة لمسيلة يطلقون اسم بني مسيل ***(Béni-M'sil)*** على الحضر من سكّان مسيلة وهم أقدم سكّانها، ولعلّ الذاكرة الشعبية التي احتفظت بهذه التسمية– إن لم تكن مصادفة– تشير إلى سكّانها القدامى الماسيل، وهذا يدعّم فرضية نزوح الماسيل القدامى إلى ناحية مسيلة بعد إجلائهم من طرف الاستعمار الروماني من الأراضي التلّية المجاورة لسيرتا. ظهرت المدينة خلال الفترة الرومانية باسم زابي اليوستنيانية (***Zabi Jusiniana***) ولكن هذا الاسم طواه التاريخ إلا إذا اعتبرنا أنّ اسم الزاب الحديث هو استمرار حيّ له خاصّة وأنّه علَم على واحات بسكرة المجاورة، أما في مسيلة فقد بقي اسم البازيليكا[٧] مما يدلّ على أهمية المدينة إداريًا وكنسيًا.

١- ارتباط أسماء المدن باسم ساكنيها

من المعروف أنّ عددا هامّا من أسماء الأماكن احتفظ بذكرى أقوام كانوا يسكنون فيها ذات فترة تاريخية وتركوا أسماءهم لتدلّ على ذلك، والأمثلة كثيرة في هذا الباب، وحتّى في جهات أخرى من العالم مثل اليونان وفارس وفلسطين؛ هذه البلاد تحمل أسماء شعوبها، وبلاد مثل جرمانيا ***(Germanie)*** والعربية ***(Arabie)*** وفرنسا ***(France)*** هي بلاد يسكنها على التوالي: الجرمان والعرب والفرنجة، والذي يصدق على البلدان يصدق على الجبال والأودية والسهول، فالإقليم يأخذ اسم الشعب الذي يسكنه، والنهر قد يأخذ اسم الشعب الذي يسكن على ضفافه، والمدينة في كثير من الأحيان تأخذ اسم القبيلة التي أسّستها أو سكنتها، والشمال الأفريقي يؤكّد ذلك مع أنّه ليس قاعدة عامّة فالفضاء الذي تشغله قبيلة أو كنفدرالية قبائل يأخذ اسم تلك القبيلة أو الكنفدرالية، ومصداقا لهذا نجد جبل هنتاتة جنوبي مرّاكش وجبل شفشاوة، وهنتاتة وشفشاوة كما نعرف هما قبيلتان تسكنان تلك الجبال[٨] والأمثلة في الجزائر كثيرة، ففي الأطلس البليدي نجد جبل بني مصرة وجبل موزاية وإلى الجنوب من بوسعادة نجد جبال أولاد نايل، وإلى الجنوب من مدينة عنّابة نجد جبال بني صالح وإلى الشرق من أوراس نجد جبال وبلاد النمامشة، هذه الجبال كلّها تسمّى باسم الأقوام التي تسكنها[٩].

ما يصدق على الجبال يصدق على الأودية، ففي مرّاكش هناك وادي شفشاوة وقرب البليدة هناك وادي موزاية وفي الصحراء وادي امزاب، وفي المتّيجة وادي واجار الذي يخترق إقليم قبيلة واجار، أمّا المدن التي تحمل اسم قبيلة لأنّها أنشئت فوق إقليمها فهناك أمثلة عديدة منها في المغرب: مكناس: مدينة قبيلة مكناسة وقصر مصمودة ما بين سبتة وطنجة وكان في الأساس حصنًا لقبيلة مصمودة، وفي الجزائر مدن عديدة تحمل أسماء قبائل منها ندرومة؛ مدينة قبيلة بهذا الاسم، ووزينة ***(Ouzina)*** وهي بلدة في سهل سرسو الشرقي احتفظت بذكرى أوزيناس ***(Uzinaces)*** العتيقة، وقلعة هوارة شمال شرقي معسكر قبل أن تحمل اسم قلعة بني راشد[١٠]. إنّ لَمْدِيَّة[١١] وبجاية هما اسمان لقبيلتين من المجموعة الصنهاجية، أنشئت فوق إقليمهما مدينتان بنفس الاسم[١٢] ومع أنّ بجاية جدّدها الناصر بن علنّاس وسمّاها: **الناصرية**[١٣] لتخليد اسمه إلاّ أنّ السكّان فضّلوا اسم القبيلة التي شيّدت المدينة فوق أرضها، فأصبح اسم علم رائج وشهير وامّحى اسم الناصرية من الذاكرة الشعبية نهائيًا.

٢-أصل اسم مسيلة

يشكّل اسم مسيلة الجزء الثاني من اسم مدينة أخرى هي تيسمسيلت (تيس-**مسيلت** ***Tis-msilt***) فمن الناحية الاشتقاقية نجد أن جذر الاسمين واحد وهو الجذر الثلاثي م س ل ***MSL*** والتاء في بداية ونهاية تيسمسيلت هي علامة التأنيث في الأمازيغية كما هو معروف أما حرف السين فهو

للمطاوعة، مع أننا وجدنا من يقول أنّ تيسمسلت تعني مغرب الشمس، وهو تفسير غير مؤكّد بعد. ليس ببعيد أن يكون اسم مسيلة[١٤] استمرارًا لاسم الماسيل القديم، ومع أنّ مجدّدها في العصر الإسلامي نسبها إلى نفسه: المحمّدية، إلاّ أنّه كما هو الحال في اسم بجاية امّحى اسم المحمّدية من الذاكرة الشعبية واستمرّ اسم مسيلة على الدوام،لأنّ السكّان فضّلوا اسم قبيلة ماسيلا القديمة على اسم الأمير محمّد بن عبيد الله.[١٥]

يبقى أن نبحث عن الدليل الذي يثبت استقرار الماسيل في هذه الجهة لنثبت تكريس هذا الاسم واستمراره ويمكن أن نعمد إلى المقارنات، فقد حدّد كامبس إقليم المملكة الماسيلية في القرن الثالث ق.م. وموطن الماسيل وملوكهم[١٦]، وأنّها تمتدّ من منطقة سيرتا إلى شمالي تونس بجوار قرطاج والخندق الملكي ***(Fossa Regia)*** الذي يمثّل الحدود بين قرطاج البونية (مقاطعة أفريقيا الرومانية في وقت لاحق) والمملكة الماسيلية النوميدية، كما يمتدّ نفوذ مملكة الماسيل جنوبا إلى قبائل الرحّل دون تحديد شكل ذلك النفوذ أو حدوده، وليس مستبعدًا أن يكون الماسيل الذين فقدوا السيادة في مملكتهم على إثر الاحتلال الروماني قد تراجعوا نحو الجهات الداخلية، أو أنّهم طردوا من طرف قبائل منافسة لهم وأقوى منهم وليس منطقيًا أن نقول بأنّهم انقرضوا وامّحوا نهائيا، بل يمكن القول أنّهم فقدوا موطنهم وضعفوا وأصبحوا مجرّد قبيلة ثمّ تراجعوا عن مواطنهم الغنية في الشمال نحو الجبال والسهوب الداخلية.

إنّ نزوح الماسيل إلى الجنوب الغربي والجلاء عن موطنهم الأصلي في جوار سيرتا، بحثًا عن ملجأ آمن خلف جبال الحضنة هو أحد الاحتمالات، لأنّ قبيلة كبرى كانت مجاورة لهم هي قبيلة النيسيبيين (***Les Nicibes***) الذين ذكرت النصوص التاريخية استمرارهم في الوجود إلى العهد البيزنطي بتيجس (عين البرج) بالقرب من سيقوس غير بعيد عن سيرتا، لا نعرف الظروف التي أجبرتهم على النزوح من هناك بحثًا عن مكان آمن إلى نفس الجهة التي يحتمل أن يكون الماسيل قد نزحوا إليها، وهؤلاء النيسيبيون هم الذين أسّسوا مدينة نقاوس التي تحمل اسمهم[١٧]، وبذلك يتكرّر نفس النزوح الذي يكون الماسيل قد تعرّضوا له من قبلهم، فهل يمكن اعتبار هذه المقاربة بين الماسيل ومسيلة طريقًا يوصل إلى ربط حلقات التاريخ المغاربي المبتورة بفعل الكتابات التاريخية "غير البريئة" دائمًا![١٨]

ورد اسم الماسيل في عديد النصوص القديمة فهذا سترابون يشير إلى أنّ الماسيل يزرعون أراضٍ عالية الجودة[١٩] ولعل ذلك كان عندما كانوا في منطقة التلال القسنطينية قبل أن يستولي الرومان على أفريقيا ويدفعون بالكنفدرالية القبلية الماسيلية إلى الجنوب نحو الأراضي الأقل خصوبة، أو أنّ الماسيل هم الذين انسحبوا جنوبًا بعد فقدان مكانتهم وسقوط مملكتهم.

تكون الكنفدرالية الماسيلية التي تجمع عديد القبائل قد شكّلت القوة السياسية الأولى في أفريقيا القديمة ومنها انبثقت أعرق الأسر الملكية التي أنجبت أشهر الملوك مثل ماسينيسا ويوغرطة ويوبا، وكان بطليموس[٢٠] الذي اغتيل في روما آخر ملوكها، تلك هي العائلة الملكية الماسيلية التي استمر ملوكها في حكم كل أفريقيا الشمالية خاصة بعد انقراض الأسرة الموريه، ومع أنّه ليس من اليسير الجزم بالمنطقة الأصلية للماسيل إلاّ أنّ المرجح هو أن تكون هذا الإقليم الشاسع الممتدّ ما بين مدن سيرتا وثوقا (***Thugga***) وتيفست (***Thiveste***) وضريح مدغاسن ولعل الدراسات الطوبونيمية ستجيبنا ذات يوم لأن أسماء المكان كثيرا ما تحتفظ بها الذاكرة الجماعية الشعبية فتظل متداولة من جيل إلى آخر.

اعتمادًا على دراسات أثرية لمنطقة سيرتا خاصّة آثار الفترة البروتوتاريخية في جبل فورتاس بجوار سيقوس حيث عثر على منحوتات لزعماء محليين وعلى كتابات ليبية، يمكن أن تكون تلك المنطقة هي مهد الجماعة السكانية التي تكوّنت منها نواة القبيلة الماسيلية التي تكون قد توسّعت وأنشأت في ما بعد مدن سيرتا وتيفست وثوقا وكذا المعلم البارز: مدغاسن، هذا الأخير يعود إلى القرن الثالث ق.م. فهو معاصر إذن للعائلة الملكية الماسيلية[٢١].

خَاتِمَةٌ

لقد أصبح موضوع الطوبونيميا يثير الكثير من التساؤلات حتى في الأوساط الأكاديمية وقد يبدو الأمر هيّنا عند البعض، ولكن الموضوع على درجة من الأهمية، لأن اسم المكان يحمل هوية المكان، فضلا عن أنه عنوان لتاريخ طويل، ولذلك أردنا من خلال هذه المقاربة الموجزة تقديم محاولة لربط مدينة مسيلة بتاريخها من خلال اسمها العريق بقدر عراقتها، والحال أنه ينبغي عند القيام بأي مقاربة تتعلق بالتونونيميا ربط أسماء الأماكن بسياقها التاريخي فمن غير المنهجي أن نبحث عن مدلول اسم مدينة عريقة ظهرت منذ قرون قبل الميلاد في لغة بدأ ظهورها التدريجي بعد ذلك بأكثر من عشرة قرون.

خريطة رقم (١)

أهمّ المدن والبلْدات في المنطقة الشرقية من الجزائر الحالية خلال الفترة الرومانية (القرن IV الميلادي)

الملاحق

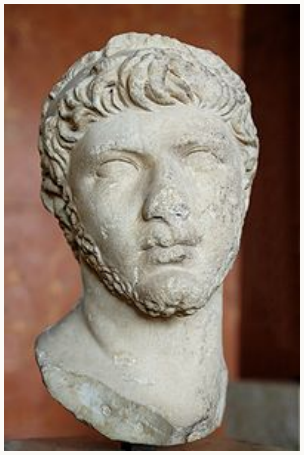

صورة رقم (١)

بطليموس آخر ملوك السلالة الماسيلية

الهَوامِشُ:

(١) الإنياذة **(Enéide)** هي قصيدة ملحمية مطوّلة، تتغنّى بأمجاد الرومان، ألّفها الشاعر الروماني فرجيليوس على غرار ملحمة الإلياذة الإغريقية **(Iliade)**.

(٢) كومة في اللاتينية **(Cumae)** مدينة في إقليم كمبانيا على ساحل البحرالتيراني **(Mer Tyrrhénienne)** غير بعيد عن عن نابولي، وكانت مستعمرة إغريقية أنشئت في القرن الثالث ق.م.

*(3) "...magnas obeuntia terras tot maria intraui duce te, penitusque repostas Massylum gentes praetentaque Syrtibus arua". **Enéide, VI, 56-60.***

(٤) صوفونيسبة **(Sophonisbe)** أميرة قرطاجية كانت مخطوبة لماسينيسا ولكن قرطاج زوّجتها زواجًا سياسيًا لخصمه سيفاكس لأنّه حليفها، وعندما انهزمت قرطاج وأسر حليفها سيفاكس **(Syphax)** فضّلت صوفونيسبة الانتحار على حياة الأسر المهينة.

(٥) ابن حمّاد، **أخبار ملوك بني عبيد**، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، نشر دار الصحوة القاهرة د.ت. ص١٢.

(٦) الطوبونيميا من الأصل الإغريقي: **(topos)** مكان، و**(onuma)** اسم، أي اسم المكان، فالطوبونيميا إذن تعتني بدراسة أسماء الأماكن لغويًا وتاريخيًا انظر:

- Larousse Encyclopédique, Paris 1979, Article : Toponymie, p. 1404

(٧) تحرّف اسم بازيليكا (*Basilic*) في ألسنة العوامّ إلى بشيلقا *B'chilga* وهو اليوم اسم قرية مجاورة لمسيلة.

(8) Encyclopédie de l'Islam, Art. Chefchawa

(٩) للمزيد، انظر:

Ben cheneb(S.), Masila = massyli, dans RHCM, V, 1968, pp.12-15.

(١٠) ابن خلدون؛ العبر، المجلّد **VIII**، ص ١٦٥.

(١١) ما يزال يقال للمنتمي لمدينة لمدية في العامية تلمداني وهذا من اسمها الأمازيغي: ثيلمدنت *Tilemdent* التي تحولت إلى لمدية.

(١٢) ابن خلدون، العبر، المجلّد **VII**، ص١٥٧.

(١٣) وهي التي امتدحها شاعرها ابن الفكّون في قصيدة مطلعها:

دع بالعراق بغداد وشامها فالناصرية ما إن مثلها بلد!

(١٤) حاول البعض إجراء مقاربة لغوية وذلك بافتراض اشتقاق اسم مسيلة من مسيل الماء وهو خطّ جريانه، وإذا كان هذا الجريان يتكرّر في أماكن أخرى فإنّنا لا نجد اسم مسيلة يتكرّر مع أن ذلك الجريان يوجد في كلّ الجهات وبنفس المعطيات الجغرافية ممّا يجعل هذا الافتراض ضعيفا، كما حاول البعض الرجوع إلى الطوبونيميا الأمازيغية انطلاقا من المنطوق الأمازيغي لاسم المدينة وهو مسيلت**(M'Silt)** الموجود في صيغة المذكّر أمسيل **(Amsil)** في عديد الجهات لاستنباط معنى له عبر لهجات اللغة الأمازيغية ومنه بلدة بهذا الاسم تقع بين مسيلة وبوسعادة.

(15) Encyclopédie de l'Islam, III. P. 921 .

(16) CAMPS(G.),Origines du Royaume Massyle , IN R.H.C.M. , 1967,N°3 p.35

(17) LANCEL (S.), Suburbures et Nicibes , IN Libyca, T. III, 1955, pp. 289-298.

(١٨) في الدراسة الفونية لأسماء: ماسيلا، ماسيل، مسيلة يلاحَظ امتداد الصوت في حرف الياء في الأسماء الثلاثة وهذا ما يدعّم هذه المقاربة أيضًا.

(19) Strabon, XVII, III, 11

(٢٠) بطليموس الموريتاني *(Ptolémée de Maurétanie)* حكم في الفترة ما بين ٢٣-٤٠ بعد الميلاد، ورث عن أبيه يوبا الثاني مملكة شاسعة تمتدّ من منطقة سطيف إلى المحيط الأطلنطي، إلاّ أنّها مملكة خاضعة للتبعية لأباطرة روما، كانت نهايته درامية فقد دعي إلى حضور حفل إمبراطوري لكن الإمبراطور كاليغولا بيّت له سوء النيّة فأمر باغتياله، وبذلك انتهي حكم آخر ملك من السلالة الماسيلية من جهة أبيه فهو ابن يوبا الثاني بن يوبا الاول بن يامبسال الثاني بن غودة بن مسطانبال بن ماسينيسا، كما أنه يعتبَر آخر ملك من السلالة البطلمية من جهة أمّه فهو ابن كليوباطرة سيليني البنت الوحيدة لكليوباطرة **VII** من مارك أنطوان! انظر:

-COLTELLONI-TRANNOY (Michèle), Le royaume de Maurétanie sous Juba II et Ptolémée (25 av. J.-C.-40 ap. J.-C), Etudes d'Antiquités Africaines, (CNRS Editions), Paris 1997, p. 34.

(21) CAMPS (G.), Aux origines de la Berbérie, MASSINISSA OU LES DÉBUTS DE l'HISTOIRE. IN Libyca, T. VIII, 1er semestre 1960, p. 178.